بسم الله الرحمن الرحيم

الْبِيئَةُ نِعْمَةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَمَسْؤُولِيَّةٌ إِنْسَانِيَّةٌ 14 رَبِيعِ الثَّانِي 1448هـ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ خَيْرَ الْوَصَايَا وَأَعْظَمَهَا، وَأَجَلَّهَا وَأَرْفَعَهَا: الْوَصِيَّةُ بِتَقْوَى اللهِ تَعَالَى؛ فَهِيَ وَصِيَّةُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّه﴾.

إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا فِتْنَةَ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَتَاعُ الْغُرُورِ، نَعِيمُهَا يَؤُولُ إِلَى الزَّوَالِ، وَمَتَاعُهَا يَصِيرُ إِلَى الِاضْمِحْلَالِ، وَكُلُّ مَنْ فِيهَا سَيَفْنَى، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الِاسْتِخْلَافَ فِي الْأَرْضِ مَسْؤُولِيَّةٌ تَسْتَوْجِبُ الْأَمَانَةَ، وَقَدْ قَلَّدَكُمُ اللهُ الْأَمَانَةَ الَّتِي أَشْفَقَتْ مِنْ حَمْلِهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، وَالْأَمَانَةُ تَسْتَلْزِمُ الصِّدْقَ وَالنَّزَاهَةَ وَالْإِخْلَاصَ، وَالْوَفَاءَ بِالْعُهُودِ وَالْعُقُودِ وَالْحُقُوقِ وَالِالْتِزَامَاتِ، وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَهِيَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، أَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ».

عِبَادَ اللهِ: الِاسْتِخْلَافُ فِي الْأَرْضِ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وَهُوَ امْتِحَانٌ

يَسْتَوْجِبُ مُحَاسَبَةَ النَّفْسِ وَمُرَاقَبَةَ اللهِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ نِعْمَةَ الِاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ، وَالْعَيْشِ فِي أَرْجَائِهَا، وَالْمَشْيِ فِي مَنَاكِبِهَا، فِتْنَةٌ وَابْتِلَاءٌ، وَلَيْسَ أَعْظَمُ مِنْ فِتْنَةِ النَّعْمَاءِ، وَامْتِحَانِ السَّرَّاءِ؛ لَأَنَّ الرَّخَاءَ يُنْسِي، وَالْمَتَاعَ يُلْهِي، وَالثَّرَاءَ يُطْغِي، فِي دُنْيَا مُسْتَطَابَةٍ فِي ذَوْقِهَا، مُعْجِبَةٍ فِي مَنْظَرِهَا، مُونِقَةٍ فِي مَظْهَرِهَا، الْفِتْنَةُ بِهَا حَاصِلَةٌ، وَعَدَمُ السَّلَامَةِ مِنْهَا غَالِبَةٌ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ». قَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْمِنْهَاجِ»: مَعْنَى «مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا»: جَاعِلُكُمْ خُلَفَاءَ مِنَ الْقُرُونِ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، فَيَنْظُرُ هَلْ تَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ، أَمْ بِمَعْصِيَتِهِ وَشَهَوَاتِكُمْ.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ أَبْنَاءَنَا الْيَوْمَ يَتَعَرَّضُونَ لِسُعَارِ الْفَسَادِ، وَطُغْيَانِ التَّغْرِيبِ، وَدَاءِ التَّمْيِيعِ وَالْإِهْمَالِ، وَسَيَسْأَلُنَا اللهُ عَنْهُمْ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدِ اسْتَخْلَفَ اللهُ أُمَمًا فِي الْأَرْضِ سِنِينَ عَدَدًا، وَلَبِثُوا عَلَى هَذِهِ الْبَسِيطَةِ أَمَدًا، فَلَمْ يُرَاعُوا لِلَّهِ عَهْدًا، وَقَدْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا، قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَأَنْبَائِهِمْ

مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَازْدِجَارٌ لِلظَّالِمِينَ، وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ، قَالَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾، لَمْ يَكُونُوا أَوْفِيَاءَ، لَمْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ، بَلْ كَانُوا مَرَقَةً فَسَقَةً، خَارِجِينَ عَنِ الطَّاعَةِ وَالِامْتِثَالِ، إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَالضَّلَالِ، أُمَمٌ سَادَتْ ثُمَّ بَادَتْ، ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾. فَحَذَرًا ثُمَّ حَذَرًا أَنْ يَكُونَ لَنَا مِنْ حَالِهِمْ نَصِيبٌ، حَذَارِ حَذَارِ أَنْ تَعْصُوا اللهَ فِي بِلَادِهِ، أَوْ تُضَادُّوهُ فِي مُرَادِهِ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّهُ مَا مِنْ شَرٍّ وَدَاءٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا وَسَبَبُهُ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي، فَاللهُ ﷻ قَصَّ عَلَيْنَا مَا حَلَّ بِالْأُمَمِ السَّابِقَةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ؛ جَزَاءَ مَعْصِيَةِ اللهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ.

فَتَأَمَّلُوا رَحِمَكُمُ اللهُ مَا الَّذِي أَخْرَجَ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ -دَارِ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ- إِلَى دَارِ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ، وَتَأَمَّلُوا مَا الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ، وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ وَمَسَخَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ، وَبَدَّلَهُ بِالْقُرْبِ بُعْدًا، وَبِالرَّحْمَةِ لَعْنَةً، وَبِالْجَنَّةِ نَارًا، فَهَانَ عَلَى اللهِ غَايَةَ الْهَوَانِ، وَحَلَّ عَلَيْهِ غَضَبُ الرَّبِّ، فَمَقَتَهُ أَكْبَرَ الْمَقْتِ، كُلُّ هَذَا بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللهِ وَارْتِكَابِ نَهْيِهِ، وَتَأَمَّلْ مَا حَلَّ بِالْأُمَمِ الْمُخَالِفَةِ لِرُسُلِ رَبِّهَا، كَيْفَ كَانَ عَذَابُ اللهِ لَهَا أَلِيمًا شَدِيدًا!! انْظُرُوا عَافَاكُمُ اللهُ مَا حَلَّ بِقَوْمِ نُوحٍ مِنَ الْغَرَقِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾، وَانْظُرُوا مَا حَلَّ بِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ، حَيْثُ سَلَّطَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ، ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾، وَانْظُرُوا مَا حَلَّ بِقَوْمِ صَالِحٍ، حَيْثُ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الصَّيْحَةَ، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، وَانْظُرُوا مَا حَلَّ بِقَوْمِ لُوطٍ، حَيْثُ قُلِبَتْ عَلَيْهِمْ قُرَاهُمْ، وَأُمْطِرُوا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾، وَانْظُرُوا مَا حَلَّ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ حِينَ كَذَّبُوا، ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

وَهَكَذَا تَتَوَالَى نُذُرُ اللهِ عَلَى الَّذِينَ خَالَفُوا أَمْرَهُ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ، ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، مَا أَهْوَنَ الْخَلْقَ عَلَى اللهِ إِذَا هُمْ خَالَفُوا أَمْرَهُ، فَكَمْ أَهْلَكَ مِنَ الْقُرُونِ بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْمَعَاصِي سَبَبُ كُلِّ عَنَاءٍ، وَطَرِيقُ كُلِّ شَقَاءٍ، فَمَا حَلَّتْ بِدِيَارٍ إِلَّا أَهْلَكَتْهَا، وَلَا فَشَتْ فِي مُجْتَمَعَاتٍ إِلَّا دَمَّرَتْهَا، وَمَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ إِلَّا بِالذُّنُوبِ، وَمَا نَجَا مَنْ نَجَا - بَعْدَ رَحْمَةِ اللهِ - إِلَّا بِالطَّاعَةِ وَالتَّوْبَةِ، وَإِنَّ مَا يُصِيبُ النَّاسَ مِنْ ضُرٍّ وَضِيقٍ فِي أَبْدَانِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ مَعَاصِيهِمْ، وَمَا كَسَبَتْهُ أَيْدِيهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَمَّا طَغَتْ عَلَيْهِمُ الْمَادِّيَّاتُ، وَأُشْرِبُوا حُبَّ الدُّنْيَا، غَفَلُوا عَنْ إِدْرَاكِ سُنَنِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ، وَالنَّظَرِ فِي آيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ، الَّتِي بَيَّنَتْ كَيْفَ كَانَ حَالُ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، حِينَ خَالَفُوا أَمْرَ اللهِ، وَغَفَلُوا كَذَلِكَ عَنْ إِدْرَاكِ أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ، وَمَا قَدْ يُصِيبُهُمْ مِنْ بَلَاءٍ وَشِدَّةٍ وَنَقْصٍ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ؛ لِذَا لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ وَكَفِّهَا عَنْ غَيِّهَا، فَانْتَشَرَتْ بِذَلِكَ الْفَوَاحِشُ، وَكَثُرَتِ الْمُنْكَرَاتُ، وَاسْتُبِيحَتِ الْمُحَرَّمَاتُ؛ لِغِيَابِ الرَّقِيبِ، وَضَعْفِ الْإِيمَانِ فِي النُّفُوسِ، وَقِلَّةِ الْخَوْفِ مِنَ اللهِ، وَالْجَهْلِ بِهِ، فَهَانُوا بِذَلِكَ عَلَى اللهِ، وَلَوْ عَزُّوا عَلَيْهِ لَعَصَمَهُمْ.